

﴿وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْهَارًا وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا رُوحَيْنِ اثْنَيْنِ يُغْشَى اللَّيْلُ النَّهَارَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الزعد: 3]

❁ مُنَاسَبَةُ الْآيَةِ لِمَا قَبْلَهَا:

لَمَّا ذَكَرَ رَبُّنَا ﷻ الدَّلَالََةَ عَلَى وَحْدَانِيَّتِهِ وَكَمَالِ قُدْرَتِهِ، وَهِيَ رَفَعَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ، وَذَكَرَ أَحْوَالَ الشَّمْسِ وَالْقَمَرِ؛ أَرَدَ فِيهَا بِذِكْرِ الدَّلَائِلِ الْأَرْضِيَّةِ، فَقَالَ: ﴿وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ﴾⁽¹⁾، فَبَعْدَ أَنْ ذَكَرَ سُبْحَانَهُ الدَّلَائِلَ السَّمَاوِيَّةَ عَلَى وَحْدَانِيَّتِهِ وَكَمَالِ قُدْرَتِهِ؛ أَرَدَ فِيهَا بِالْأَدَلَّةِ الْأَرْضِيَّةِ⁽²⁾، فَهُوَ انْتِقَالٌ مِنَ آيَاتِ الْكَوْنِيَّةِ السَّمَاوِيَّةِ، إِلَى آيَاتِ الْكَوْنِيَّةِ الْأَرْضِيَّةِ؛ بِغَرَضِ التَّفَكُّرِ وَالتَّدَبُّرِ فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ، وَالْإِبْتِدَاءِ بِالسَّمَاوِيَّةِ بِاعْتِبَارِهَا أَوْضَحَ وَأَشْرَفَ.

تفصيل ذُكِرَ
الدَّلَائِلُ الْأَرْضِيَّةُ
بعد ذُكْرِ الدَّلَائِلِ
السَّمَاوِيَّةِ

❁ شَرْحُ الْمَفْرَدَاتِ:

(1) ﴿مَدَّ﴾: الْمَدُّ: الْبَسْطُ، يُقَالُ: مَدَّ اللَّهُ الْأَرْضَ يَمُدُّهَا مَدًّا: بَسَطَهَا، وَسَوَّاهَا⁽³⁾، وَمَدَّ الْحَرْفَ يَمُدُّهُ مَدًّا: طَوَّلَهُ⁽⁴⁾، وَأَصْلُ (مَدَّ) يَدُلُّ عَلَى اسْتِطَالَةِ جِزْمِ الشَّيْءِ فِي نَفْسِهِ أَوْ بِاتِّصَالِهِ بِغَيْرِهِ، فَيَزِيدُهُ طَوْلًا وَاسْتِمْرَارًا، أَوْ قَدْرًا⁽⁵⁾، وَمَدَّ النَّهْرَ، وَمَدَّهُ نَهْرٌ آخِرٌ، إِذَا زَادَ فِيهِ، وَوَاوَصَلَهُ، فَأَطَالَ مُدَّتَهُ⁽⁶⁾، وَالْمَعْنَى هُنَا: بَسَطَهَا طَوْلًا وَعَرَضًا لِتَثْبِثِ عَلَيْهَا الْأَقْدَامَ، وَيَتَقَلَّبَ عَلَيْهَا الْحَيَوَانُ⁽⁷⁾.

(1) الخازن، لِبَابِ التَّأْوِيلِ: 3/4.

(2) للراغِي، تَفْسِيرُ الرَّاغِي: 13/65.

(3) ابْنُ مَنْظُورٍ، لِسَانُ الْعَرَبِ: (مَدَّ).

(4) الرَّبِيدِيُّ، تَاجُ الْعَرُوسِ: (مَدَد).

(5) جَبَلٌ، لِلْمَعْجَمِ الْاِشْتِقَاقِيِّ لِلْمُؤَصَّلِ: (مَدَد).

(6) الْأَزْهَرِيُّ، تَهْذِيبُ اللَّغَةِ، وَابْنُ فَارَسٍ، مَقَابِيسُ اللَّغَةِ: (مَدَّ).

(7) الْجَمَلُ، حَاشِيَةُ الْجَمَلِ عَلَى الْجَدَالَيْنِ: 4/93.

(2) ﴿رَوَيْ﴾: ثوابت، والرُّسُو: الثُّبوت، والإرساء: الإثبات، يُقال: رسا الشيءُ يرسو رُسُوًا، إِذَا ثَبَتَ⁽¹⁾ وأصل الرُّسُو يَدُلُّ على ثبات الشيءِ بلزوم أسفله أو باطنه ما يُمَسِّكُهُ بِتَمَكُّنٍ⁽²⁾، ومنه رَسَا الجَبَلُ: ثَبَتَ أَصْلُهُ فِي الْأَرْضِ، وَرَسَتِ السَّفِينَةُ: بَلَغَ أَصْفُلُهَا الْقَعْرَ، وانتهى إلى قرار الماء، فثَبَّتَتْ، وبقيت لا تَسِيرُ، وَقَدَّرَ رَاسِيَةً: لا تَبْرَحَ مكانها، ولا يُطَاقُ تحويلها لِعِظَمِهَا⁽³⁾، والمعنى هنا: جعل فيها جبالاً ثوابت رواسخ⁽⁴⁾.

(3) ﴿يُغْشَى﴾: يُغَطِّي، والغشاء: الغطاء، وغاشية السَّرَج: غطاؤه، وغِشاء كلِّ شيء: ما تَغْشَاهُ كغِشاء القلب والرَّحْل والسَّرَج والسَّيْف ونحوها، وغاشية القلب وغشاوته: قميصه، وأصلُ (غشي): يَدُلُّ على تغطية شيءٍ بشيءٍ كثيف يُعَمِّهُ كغِشاء السَّرَج والجفن، ومن ذلك: تَغَشَّى ثِيَابَهُ واستغشاها: تَغَطَّى بها كي لا يَرَى، ولا يَسْمَع، وَسُمِّيَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ غَاشِيَةً؛ لِأَنَّهَا تَغْشَى الْخَلْقَ بِإِفْزَاعِهَا⁽⁵⁾، وقد تُطْلَقُ الغَاشِيَةُ عَلَى النَّارِ؛ لكونها تَغْشَى وُجُوهَ الْكَفَّارِ⁽⁶⁾، كما قال الله تعالى: ﴿وَتَغْشَى وَجُوهَهُمُ النَّارُ﴾ [إبراهيم: 50]، والمعنى هنا: أي: يجعل الليل غاشياً يغشى النهار بظلمته، فيذهب بنور النهار، ويُعْطِيهِ بْظُلْمَةَ اللَّيْلِ، وَيُلْبِسُهُ مكانه⁽⁷⁾.

❁ المعنى الإجمالي:

الله وحده هو الذي بسط الأرض بحكمته وإتقانه، وجعلها مُتَّسِعَةً

بيان من الله
وإنعامه على
خلقه بشئ
صنوف النعم
الظاهرة
والباطنة

(1) الزاغب، المفردات: (رسا)، والسجستاني، غريب القرآن، ص: 239.

(2) جبل، المعجم الاشتقاقي للؤصل: (رسو).

(3) السمين الحلي، عمدة الحفاظ: (رسي)، وجبل، المعجم الاشتقاقي للؤصل: (رسو).

(4) البضاوي، أنوار التنزيل: 3/181.

(5) المعجم الاشتقاقي للؤصل: (غشو - غشي)، وابن فارس، مقاييس اللغة، والزبيدي، تاج العروس: (غشي).

(6) ابن سيده، المحكم: (غشو).

(7) إسماعيل حقّي، روح البيان: 3/175، والآلوسي، روح المعاني: 7/96.

مُمتدَّة وخلق فيها جبلاً ثوابت تُتَبَّهَتْ حَتَّى لَا تَضْطَرِبَ بِالنَّاسِ،
وَأَنهَاراً لَشَرْبِكُمْ وَمَنَافِعِكُمْ، وَمِنْ كُلِّ أَنْوَاعِ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا صَنْفِينِ
كَالذَّكَرِ وَالْأُنْثَى فِي الْحَيَوَانِ، يُلْبَسُ اللَّيْلُ النَّهَارَ، فَيَصِيرُ مُظْلَمًا بَعْدَمَا
كَانَ مُنِيرًا، إِنَّ فِي ذَلِكَ الْمَذْكُورِ لَأَدْلَةً وَبَرَاهِينَ بَيِّنَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ فِي
صَنْعِ اللَّهِ، وَيَتَأَمَّلُونَ فِيهِ، فَهَمَّ الَّذِينَ يَنْتَفِعُونَ بِتِلْكَ الْأَدْلَةِ وَالْبَرَاهِينِ⁽¹⁾.

❁ الإيضاح اللغوي والبلاغي:

بلغة العطف بين الجمل:

قوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ﴾ عَطَفُ عَلَى الْجُمْلَةِ الْاسْمِيَّةِ
﴿اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَوَاتِ﴾ فَبَيَّنَ الْجُمْلَتَيْنِ شِبْهَ التَّضَادِّ، فَقَدْ اشْتَمَلَتْ
الْأُولَى عَلَى ذِكْرِ الْعَوَالِمِ الْعُلُويَّةِ وَأَحْوَالِهَا، وَاشْتَمَلَتْ الثَّانِيَّةُ عَلَى ذِكْرِ
الْعَوَالِمِ السُّفْلِيَّةِ، وَالْمَعْنَى: أَنَّهُ خَالِقُ جَمِيعِ الْعَوَالِمِ وَأَعْرَاضِهَا⁽²⁾، فَلَمَّا
فَرَّرَ الدَّلَائِلَ السَّمَاوِيَّةَ؛ أَرَدَفَهَا بِتَقْرِيرِ الدَّلَائِلِ الْأَرْضِيَّةِ⁽³⁾.

فائدة القصر ودلالته:

قوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ﴾؛ أَي: وَحْدَهُ⁽⁴⁾ دُونَ سِوَاهُ، وَفِي
هَذَا الْإِسْنَادِ قَصْرٌ حَقِيقِيٌّ مِنْ بَابِ قَصْرِ الصِّفَةِ عَلَى الْمَوْصُوفِ،
وَهُوَ قَصْرٌ مُسْتَفَادٌ مِنْ تَعْرِيفِ طَرَفِي الْإِسْنَادِ بِذِكْرِ ضَمِيرِ الْفَصْلِ
وَالِاسْمِ الْمَوْصُولِ، وَيَنْجَرُّ الْقَصْرُ هُنَا أَيْضًا إِلَى جَعْلِ الرُّوَاسِي
وَالْأَنهَارِ فِي الْأَرْضِ، وَجَعَلَ الثَّمَرَاتِ؛ لِأَنَّهَا مِنْ مُلْحَقَاتِ صَلَةِ الْمَوْصُولِ
﴿مَدَّ الْأَرْضَ﴾، وَفِي هَذَا الْقَصْرِ دَلَالَةٌ عَلَى وَحْدَةِ الصَّانِعِ الْحَكِيمِ
الْعَلِيمِ الْمُرِيدِ الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ، ثُمَّ هَدَى⁽⁵⁾.

ذَكَرَ مَدَّ الْأَرْضِ
بَعْدَ رَفْعِ السَّمَاءِ
تَنَاسُبَ صِدْقِي
دَالٌّ عَلَى عَظِيمِ
الْإِقْتِدَارِ

وَحْدَةُ الصَّانِعِ
وَتَفَرُّدُهُ فِي
التَّدْبِيرِ مُسْتَقَرٌّ
فِي عَقْلِ كُلِّ
بَصِيرٍ

(1) لجنة من علماء الأزهر، المُتَخَبُّ في تَفْسِيرِ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ، ص: 353، وَنُخْبَةٌ مِنْ أَسَاتِذَةِ التَّفْسِيرِ،
التَّفْسِيرِ لِلْبَيْسَرِ، ص: 249، وَجَمَاعَةٌ مِنْ عُلَمَاءِ التَّفْسِيرِ، لِلخُتَصَرِ فِي تَفْسِيرِ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ، ص: 249.

(2) السِّيَاسِي، عِيُونَ التَّفَاسِيرِ: 2/256، وَابْنُ عَاشُور، التَّحْرِيرُ وَالتَّنْوِيرُ: 13/82.

(3) الْفَخْرُ الرَّازِي، مِفْتَاحُ الْغَيْبِ: 19/5.

(4) الْبِقَاعِي، نِظْمُ الدَّرَرِ: 10/274.

(5) مُحَمَّدُ أَبُو زَهْرَةَ، زَهْرَةُ التَّفَاسِيرِ: 7/3893.

النَّظَرِيَّات
الْعِلْمِيَّةُ
خاضعةٌ لأخبارِ
القرآنِ القطعيَّةِ

إنَّ إسنَادَ فعلِ المدِّ إلى الله تعالى وحده دون سِواه، دالٌّ على أنَّه مدٌّ مقصودٌ، أرادَه المعبود، لا أنَّه مدٌّ اعتباطيٌّ، أو طبيعيٌّ، كما يزعمُه مُحَمِّمُو الجيولوجيا، ومفكِّرو هذا العصر، فإنَّ مقتضى القصر أن يكون فعلًا للخالق ﷻ لا لغيره، ومقتضى العطف أن يكون مقصودًا، كما أنَّ رفعَ السَّماء كان مقصودًا، وهو خبرٌ غيبيٌّ ليس لنا فيه إلَّا الإذعان والتَّسليم، لا التَّسليم للدَّعاوى العريضة، والنَّظريَّات الهجينة، فهذا مرتعٌ غير سديد، ومسلك غير حميد.

دلالة استعمال مُفردة ﴿مَدَّ﴾:

اختيرت مفردة المدِّ في قوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ﴾ دون (بسط)؛ لأنَّ المدَّ هو البسطُ طولًا وعرضًا إلى ما لا يُدرك مُنتهاه، فهو بسطٌ وسعةٌ، فلفظ المدِّ يُشعر بأنَّه تعالى جعل حجم الأرض حجمًا عظيمًا لا يقع البصر على مُنتهاه؛ لأنَّ الأرض لو كانت أصغر حجمًا ممَّا هي عليه؛ لما كَمَلَ الانتفاع بها⁽¹⁾، والمعنى: خلق الأرض ممدودة مُتَّسعة للسَّير والزَّرع؛ لأنَّه لو خلقها أسنمة من حجر أو جبالًا شاهقة مُتلاصقة لما تيسَّر للأحياء التي عليها الانتفاع بها، والسَّير من مكان إلى آخر في طلب الرِّزق وغيره⁽²⁾، فمفردة المدِّ دالةٌ على الحكمة الإلهية، والتَّديير الربَّاني.

دلالة استعمال صيغة الماضي:

دلَّت صيغةُ الماضي في قوله تعالى: ﴿مَدَّ﴾ على ثبوت ذلك وتحقُّقه في الزَّمن الماضي، وأنَّ ما يزعمه بعض علماء الجيولوجيا بأنَّ الأرض تتشكَّل كلَّ فترة زمنيَّة، وأنَّها غير ثابتة زعمٌ باطل، فإنَّ الله قد مَدَّ الأرض، وجعل فيها رواسي لتثبيتها بعد مدِّها، فالماضي يَرُدُّ على هذا الزَّعم القائم على نظريات تخمينيَّة، ودلالة نظم القرآن أصدق في بيان حقيقة غيب الماضي.

التَّدليل على
ثبوت المدِّ
وتحقُّقه في
الزَّمن الماضي
تقريرًا للقُدرة
واللُّطف
والإنعام

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 19/5.

(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 13/82.

وليس المراد من الفعل الماضي أنها كانت غير ممدودة، فمدّها، بل هو كقوله: ﴿اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَوَاتِ﴾، فهذه خَلْقَةٌ دَالَّةٌ عَلَى الْقُدْرَةِ وَعَلَى اللُّطْفِ بِعِبَادِهِ، فهي آيةٌ ومِنَّةٌ⁽¹⁾.

دلالة استعمال مفردة ﴿وَجَعَلَ﴾ دون (خلق):

استعمل النَّظْمُ مفردة ﴿وَجَعَلَ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْهَارًا﴾، وهي تُسْتَعْمَلُ بمعنى خَلَقَ وَوَضَعَ، وَصَنَعَ، وَصَيَّرَ، كما تُسْتَعْمَلُ في غير ذلك من المعاني، واستعمالُ الْجَعْلِ دون الخلق دالٌّ على وظيفته، وهي تثبيت الأرض بعد مدّها، أمّا الخلق؛ فهو تعبيرٌ عن إيجادها، فاشتمل الجَعْلُ على دلالة الخَلْقِ لزومًا، ثم التَّصْيِيرُ لغايةٍ، وما تُضْفِيهِ ظلالُ هذا الفعل على معنى الإيجاد الذي لا يُعْجِزُ الله وقوْعُهُ في أيِّ وقت وفي آيةٍ بقعة من الأرض⁽²⁾، فهو خلقُ الأرض، ثم مدّها، ثم جعل فيها رواسي وأنهارًا، ولو قال: خلق؛ لكان فيه تنبيهٌ على أصل الخلق، وهو مِنَّةٌ عظيمةٌ، لكنّه أثر الجَعْلِ لما فيه من بيان الحكمة، فاشتملت المِنَّةُ على المِنَّةِ.

نكتة تقديم الجارّ والمجرور:

قُدِّمَ الجارُّ والمجرور في قوله تعالى: ﴿وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ﴾ اهتمامًا بهذا الجَعْلِ العظيم، وتشويقًا للمؤخَّر استدلالًا بخلق الجبال على عظيم القدرة لما في خلقها من العظمة المُشَاهِدة بخلاف خَلْقَةِ المعادن والتراب، فهي خَفِيَّةٌ، كما قال تعالى: ﴿وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ۝١٩﴾ [الغاشية: 19]⁽³⁾، كما أنَّ في التَّقديمِ تنبيهًا على تأمُّلِ المَجْعُولِ فيه، وهو الأرض؛ أي: جعل فيها عن قصدٍ وإرادةٍ وحكمةٍ، ففيه دعوةٌ للتَّأَمُّلِ والتَّفَكُّرِ امتنانًا على العباد.

التَّنبِيهُ عَلَى
أَصْلِ الْخَلْقِ ثُمَّ
التَّصْيِيرِ لَغَايَةٍ

تنبيهُ العبادِ على
معالمِ البلاد
لِلشُّكْرِ وَالْإِمْتِنَانِ

(1) ابن عاشور، التَّحْرِيرُ وَالتَّنْوِيرُ: 13/82.

(2) الدَّبَلُ، النَّظْمُ الْقِرَاطِيُّ فِي سُورَةِ الرَّعْدِ، ص: 50.

(3) ابن عاشور، التَّحْرِيرُ وَالتَّنْوِيرُ: 13/82.

سرُّ ذِكْرِ الصِّفَةِ وحذف الموصوف:

تنزيل الاسم
الوظيفي منزلة
الاسم العلمي
لإظهار الأهمية

ذُكرت الرُّواسي دون ذِكْرِ الموصوف، وهو الجبال في قوله تعالى: ﴿وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيً﴾، والرُّواسي جمع راسية، وهي الثابتة، يُقال: أرسيتُ الوتد في الأرض: إذا أثبتته⁽¹⁾، وهي هُنا صفة لموصوف محذوف، وهو من الصِّفات التي تُغني عن ذِكْرِ مَوْصُوفها، فإنَّه لولا الجبال، لمادت بأهلها؛ لأنَّها لا ثبوت لها، ولا استقرار، إلَّا بالجبال الرُّواسي التي جعلها الله أوتادًا لها⁽²⁾؛ فلمَّا غَلَبَ على الجبال وصفها بالرُّواسي، وصارت الصِّفة التي هي تعبيرٌ عن وظيفة الجبال مغنيَّةً عن الموصوف جُمِعت جمع الاسم كحائط وكاهل⁽³⁾، وحذف موصوفها لظهوره، فهو كقوله: ﴿وَلَهُ الْجَوَارِ الْمُنشَآتُ فِي الْبَحْرِ﴾ [الرحمن: 24]؛ أي: السُّفن الجارية⁽⁴⁾، فحذف الموصوف لإقامة الصِّفة مكانه باعتبارٍ من الاعتبار المقاميَّة، والاعتبار هنا وظيفة الجبال في الرِّسو والاستقرار.

صيغة جمع (فواعل) في قوله: ﴿رَوَاسِيً﴾:

كون الجمع هُنا
جمع تكسير لما
لا يعقل

فواعل يكون جمع فاعل؛ إذا كان صفة مؤنث كحائض، أو صفة ما لا يعقل مُدَكَّرًا؛ كجمع بازل وبوازل، أو اسمًا جامدًا، أو ما جرى مجراه كحائط وحوائط، وانحصار مجيئه جمعًا لذلك في فوارس وهوالك ونواكس إنَّما هو في صفات العُقلاء لا مُطلقًا، والجمع هُنا في صفة ما لا يعقل⁽⁵⁾، لأنَّ جمع التَّكْسِير من المُدَكَّر الذي لا يعقل يجري مجرى جمع الإناث⁽⁶⁾.

علَّة عطف الأنهار على الرُّواسي:

الإشارة إلى
سبب تولُّدها
ومنشأ خروجها
وتفجُّرها

قوله تعالى: ﴿وَأَنْهَرًا﴾ معطوفةٌ على ﴿رَوَاسِيً﴾ وعلَّقَ بهما فعلًا

(1) ابن جرير، تفسير ابن جرير: 13/63.

(2) السعدي، تفسير الكريم الرحمن، ص: 475.

(3) البقاعي، نظم الدرر: 10/275.

(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 13/82.

(5) الألويسي، روح المعاني: 7/89.

(6) أبو حيان، البحر المحيط: 6/346.

واحدًا، وذلك من حيث إنَّ الجبال أسبابٌ لتولُّدها، وذلك أنَّ الحَجَر جسمٌ صلب؛ فإذا تصاعدت الأبخرة من قعر الأرض، ووصلت إلى الجبل؛ احتبست هُناك، فلا تزال تتزاحم، وتتضاعف حتَّى تحصل بسبب الجبل مياهٌ عظيمة، ثُمَّ إِنَّهَا لكثرتها وقوتها تَنَقَّبُ الجبل، وتخرج، وتسيل على وجه الأرض، وتصير عيونًا في عروق الأرض، تنشق الأرض عنها في المكان الذي يُؤمر بالانشقاق فيه؛ فتظهر على وجه الأرض منفعة للخلائق⁽¹⁾.

التَّقابل الضَّدي سببٌ في العطف

كما أنَّ هُناك مُناسبة أخرى لعطف ذكر الأنهار على ذكر الجبال وهو التَّقابل بينهما؛ لأنَّ الجبال أحجار أو نحوها، والأنهار ماء سهل، فهما متقابلان في الجملة؛ ولأنَّ أودية الماء تكون بجوار الجبال وتُتخذ منها، أو تتكون مياه الأنهار ما ينحدر من الجبال، أو تنزل الأمطار على الجبال، ثُمَّ تنحدر حتَّى تجري في الأنهار⁽²⁾، فهو تقابلٌ بين علوِّ الجبال وسفلِ الأنهار، كما قابل بين رفعِ السَّماء ومدِّ الأرض، ولهذا في أكثر الأمر إذا ذَكَرَ الله تعالى الجبال؛ ذكر الأنهار كهذه الآية، وكقوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ شَلِخَتْ وَأَسْقَيْنَكُم مَّاءً فُرَاتًا ۖ﴾ [الفرات: 27]، وقوله تعالى: ﴿وَأَلْقَى فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَارًا﴾ [النحل: 15]⁽³⁾.

غرضُ التَّنكير:

قوله تعالى: ﴿رَوَاسِيَ﴾ و﴿وَأَنْهَارًا﴾ جاء مُنكَرَيْنِ لقصد التَّنكير والتَّعظيم؛ أي: وجعل فيها رواسي كثيرة عظيمة، وأنهارًا كثيرة عظيمة منفجرة منها مياه كثيرة، وفي ذلك تكثير النَّبات والأشجار، وتكثير الحبوب والثمار⁽⁴⁾، وهذه المعاني مُستوحاة من السَّياق.

إفادة العموم والتَّنكير مع التَّعظيم

(1) الفخر الرَّازي، مفاتيح الغيب: 19/5، وإسماعيل حَقِّي، روح البيان: 4/337.

(2) مُحمَّد أبو زهرة، زهرة التَّفاسير: 7/3893.

(3) أبو حَيَّان، البحر المحيط: 6/346.

(4) للهايمي، تبصير الرَّحمن: 1/377.

توجيه اجتماع المجاز بالحذف والمرسل:

ذَكَرَ الْحَلَّ إِشَارَةً
إِلَى عَظِيمِ الْحَالِ
فِيهَا

في قوله تعالى: ﴿وَجَعَلَ فِيهَا رَوْسَى وَأَنْهَرًا﴾ حذف، والتقدير: ومياه الأنهار؛ لأنَّ التَّمَنُّنَ بالمياه أكمل من التَّمَنُّنِ بأخاديدها، ولأنَّ القُدرة والحكمة في خلق الماء أتمُّ منها في خلق الأخاديد⁽¹⁾، وذلك على جعل المحذوف المضاف، أو أن يكون من باب المجاز المرسل بإطلاق المحل وإرادة الحال، على سبيل العلاقة المحلّية.

توجيه تعلّق المعطوف:

تَنَوُّعُ الاحْتِمَالِ
سَعَةً فِي الْارْتِبَاطِ
وَتَعَدُّدٌ فِي
الامْتِنَانِ

قوله تعالى: ﴿وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ﴾ يجوز فيه ثلاثة أوجه: الأول: أن يتعلّق بقوله: ﴿جَعَلَ﴾ بعده: أي: وجعل فيها زوجين اثنتين من كُلِّ صِنْفٍ من أصناف الثمرات، وهو ظاهر. الثاني: أن يتعلّق بمحذوف على أنه حال من ﴿اثنتين﴾؛ لأنه في الأصل صفاته.

الثالث: أن يتمّ الكلام على قوله: ﴿وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ﴾، فيتعلّق بقوله: ﴿وَجَعَلَ﴾ الأول، على أنه من عطف المفردات⁽²⁾، تقديره: أنه جعل في الأرض كذا وكذا من كل الثمرات، ويكون ﴿جَعَلَ﴾ الثاني مُسْتَأْنَفًا⁽³⁾؛ وفي هذه الأوجه تنويع لمواضع المنّة والعبرة ومواطنها.

معنى الحرف (من) ودلالته:

توجيه معاني
الحروف بحسب
اعتباراتها

دخول ﴿وَمِنْ﴾ على ﴿كُلِّ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ﴾ جرى على الاستعمال العربي في ذكر أجناس غير العاقل، كقوله: ﴿وَبَتْ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ﴾ [البقرة: 164]، و(مِنْ) هذه تُحْمَلُ على التَّبَعِيضِ؛ لأنَّ حقائق الأجناس لا تنحصر، والموجود منها ما هو إلا بعض جزئيات الماهية؛ لأنَّ منها جزئيات انقضت، ومنها جزئيات

(1) الدّبل، التّظم القرآني في سورة الزّعد، ص: 90.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/83.

(3) الجمل، الفتوحات الإلهية: 4/93.

ستوجد⁽¹⁾، هذا ما يقتضيه العموم المطلق، ويصح أن تكون (من) بيانية باعتبار المشاهد في الواقع.

نكتة إضافة العموم إلى العموم:

قوله تعالى: ﴿وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ﴾ أُضيف لفظ العموم ﴿كُلِّ﴾ إلى الجمع ﴿الثَّمَرَاتِ﴾، والجمع فيه معنى العموم كذلك، فأضيف العموم إلى العموم، فاكسب عمومًا مطلقًا، ممّا هو معلوم لدى المخاطب، وممّا هو مجهول؛ أي: وجعل فيها من كل أصناف الثمرات زوجين اثنين: ذكرًا وأنثى حين تكوّنهما، فقد أثبت العلم حديثًا أن الشجر والزرع لا يولدان الثمر والحب إلا من اثنين: ذكر وأنثى، وعضو التذكير قد يكون مع عضو التأنيث في شجرة واحدة؛ كأغلب الأشجار، وقد يكون عضو التذكير في شجرة وعضو التأنيث في شجرة أخرى كالنخل، وما كان العضوان فيه في شجرة واحدة؛ إمّا أن يكونا معًا في زهرة واحدة كالقطن، وإمّا أن يكون كلُّ منهما في زهرة كالقرع مثلاً⁽²⁾، ويحتمل معنى آخر للزوجية، وهي: أن الله خلق فيها من جميع أنواع الثمرات زوجين كالحلو والحامض، والأسود والأبيض، والأصفر والأحمر، والصغير والكبير⁽³⁾، وعلى كلا المعنيين فإن لفظة ﴿كُلِّ﴾ تدلّ على العموم المطلق⁽⁴⁾.

توجيه لخصوص بالذكر:

المُرَاد بالثمرات في قوله تعالى: ﴿وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ﴾ الثمرات وأشجارها، وإنّما ذُكرت الثمرات وحدها؛ لأنّها هي موضع المنّة والعبرة، كقوله تعالى: ﴿فَأَخْرَجْنَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ﴾ [الأعراف: 57]⁽⁵⁾.

الدّلالة على
العموم المطلق
في الأنواع
والأجناس

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 13/83.

(2) للراغب، تفسير الراغب: 13/65.

(3) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 9/280.

(4) الدّبل، النظم القرآني في سورة الرعد، ص: 50.

(5) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 13/83.

فائدة تقديم المعمول على العامل:

قَدْ ذَكَرَ المعمول على العامل في قوله تعالى: ﴿وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ﴾، وهو ﴿وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ﴾ على ﴿جَعَلَ﴾؛ وذلك لِرَدِّ خطأ المخاطبين إلى الصواب؛ لأنهم كانوا يظنون أنَّ الزَّوجَيْنِ خاصان ببيع الثمرات؛ كالثمر والتين، فَرَدَّهم إلى الصواب، وبَيَّنَّ لهم أنَّ جميع الثمرات مُكوَّنة من زوجين اثنين: ذكر وأنثى، وهذا على جعل هذه الجملة متعلِّقة بقوله: ﴿جَعَلَ﴾ الثانية، كما سبق بيان ذلك.

غرض التنكير:

تنكير ﴿زَوْجَيْنِ﴾ في قوله تعالى: ﴿جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ﴾؛ للتنويع؛ أي: جعل زوجين من كلِّ نوع، فإن قيل: إنَّه ذكَّرها بصيغة التثنية، فأين هو محل التنويع؟ فالجواب: أن معنى التثنية في ﴿زَوْجَيْنِ﴾ أن كل فردٍ من الزوج يُطلق عليه: زوج، كما جاء في سورة الأنعام عند قوله تعالى: ﴿تَمَنِّيََ أَزْوَاجٌ مِّنَ الضَّانِّ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْمَعْرِ اثْنَيْنِ﴾ [143] (1).

فائدة الوصف بالاثنتين:

خصَّ النَّظْمُ الاثنتين بوصف الزوجين في قوله تعالى: ﴿جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ﴾، وإن كان من أجناس الثمار ما يزيد على ذلك؛ لأنَّه الأقل؛ إذ لا نوع تنقص أصنافه عن اثنين، فلو قال: خلق زوجين، لم يعلم أنَّ المراد النوع أو الشخص، فلمَّا قال: ﴿اثْنَيْنِ﴾؛ علمنا أنَّه أوَّل ما خلق من كلِّ زوجين اثنين لا أقل ولا أزيد، فالشَّجر والزرع كبني آدم، حصل منهم كثرة، وابتدأوهم من زوجين اثنين بالشخص؛ وهما: آدم وحواء (2).

ردُّ أوهام الأفهام
في تخصيص
الزَّوجِيَّة ببعض
الثمرات

الدَّلالة على
التَّنويع في
الأزواج

دفع تَوَهُم
ازدواج الأصناف
عند بدء الخلق

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 13/84.

(2) أبو حيان، البحر المحيط: 6/346.

فعند بدء الخلق خلق من كل صنف اثنين فقط، أحدهما ذكرٌ والآخر أنثى، ثم تكاثر الزوجان من الثمرات كما تكاثر الإنسان وسائر الحيوانات، كما أن في الوصف بقوله: ﴿اثنَيْنِ﴾ تأكيداً لتحقيقاً للامتنان⁽¹⁾.

بلغة الاستئناف البياني التفصيلي:

قوله تعالى: ﴿يُعْشَى اللَّيْلَ النَّهَارَ﴾ أي: يلبس الليل بالنهار لتسكين البرودة، والنهار بالليل لتسكين الحرارة؛ ليحصل الاعتدال في طبيعة الهواء المنضج للثمرات⁽²⁾؛ وذلك لأن الليل والنهار لهما تعلق بالثمرات من حيث العقد والإنضاج، على أنهما أيضاً زوجان متقابلان مثلها⁽³⁾، فجاء الكلام عنهما مستأنفاً لشبه كمال الاتصال بينه وبين ما قبله، فكأنه قيل: ما الذي يُنضجها؟ فقال: ﴿يُعْشَى اللَّيْلَ النَّهَارَ﴾، فينضج هذا بحرّه، ويمسك هذا ببرده، فيعتدل فعلهما على ما قدره تعالى لهما في السير من الزيادة والنقصان للحر والبرد للإخراج والإنضاج، إلى غير ذلك من الحكم النافعة في الدين والدنيا، والظاهر لكل ذي عقل أنها بتدبيره بفعله واختياره وقهره واقتداره⁽⁴⁾، وفي هذا الاستئناف بيان لمظهر آخر من مظاهر قدرته سبحانه ورحمته بعباده⁽⁵⁾، إذ هو استئناف بياني يحتاج إلى ذهنٍ ثاقبٍ لاستنباط العلاقة بين الجملتين.

بلغة المجاز في التعبير بالغشيان:

معنى ﴿يُعْشَى﴾: يلبس النهار ظلمة الليل، فيصير الجو مظلماً، وكذلك يلبس الليل ضياء النهار، فيصير الجو مضيئاً، وفي هذا

تفصيل ما
سبق ببيان زمن
حصوله وسبب
صلاحه

المجاز المرسل
بجعل الجو
مكاناً للنهار
بعثاً للتأمل

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 13/84.

(2) الشيخ علوان، الفواتح الإلهية: 1/389.

(3) القاسمي، محاسن التأويل: 6/256.

(4) البقاعي، نظم الدرر: 4/122.

(5) الطنطاوي، التفسير الوسيط: 7/440.

الاستعمال مجازٌ مُرْسَلٌ علاقته المكانية، بجعل الجو مكاناً للنَّهار؛ لأنَّ الزَّمان لا مكانَ له، والمكان إنما هو للضوء الذي هو لازمه⁽¹⁾، والأصل: يُغشي اللَّيْلُ مكان النَّهار ويُغشي النَّهار مكان اللَّيْلِ؛ فَحَذَفَ المكانَ ووُضِعَ الحالُ فيه محله؛ لأنَّه لا يجتمع الظَّلام والنُّور في شيء واحد حتَّى يُغشي أحدهما الآخر، فمتى حلَّ النُّور؛ انتفى الظَّلام، ومتى ذهب النُّور؛ حلَّ الظَّلام، فيتابع الله بين اللَّيْلِ والنَّهار في انتظام عجيب ونظام دقيق يبعث على التأمل في ناموس هذا الكون، والتفكير في القدرة المبدعة التي تدبره، وترعاه⁽²⁾.

ويجوز حمل ﴿يُغْشَى﴾ على الاستعارة، بجعله مَغْشِيًّا للنَّهار ملفوفًا عليه كاللباس على الملبوس، كقوله تعالى: ﴿يُكَوِّرُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهَارِ﴾ [الزُّمَر: 5]⁽³⁾، وهي استعارة تصريحية تبعية مبنية على تشبيه إزالة نور الجو بالظلمة بتغطية الأشياء الظاهرة بالأغطية؛ أي: يسترُّ النَّهارَ باللَّيْلِ، والتَّركيب وإن احتمل العكس أيضًا بالحمل على تقديم المفعول الثاني على الأوَّل، فإنَّ ضوء النَّهار أيضًا سائرٌ لظلمة اللَّيْلِ، إلَّا أنَّ الأنسب باللَّيْلِ أن يكون هو الغاشي⁽⁴⁾.

بلاغة الاستعارة الكنيّة:

الاستعارة في لفظي اللَّيْلِ والنَّهار في قوله تعالى: ﴿يُغْشَى اللَّيْلَ النَّهَارَ﴾ مكنية أصلية، حيث شبه النَّهارَ برجل، ورمز إليه باللباس اللباس، فتكون الاستعارة مكنية بهذا المعنى⁽⁵⁾، وحينئذٍ تكون الاستعارة في لفظ النَّهار، وإذا جعلنا الاستعارة في لفظ اللَّيْلِ، فتكون بتشبيه اللَّيْلِ باللباس، ورمز إليه بالغشيان، فإنَّ اللباس

الاستعارة
التصريحية
التبعية في
تصوير اللَّيْلِ
بجعله غطاءً
للنَّهار

تجسيد
الحسوس
الكلي البعيد
بالحسوس
الجزئي القريب

(1) الألوسي، روح المعاني: 7/96.

(2) شحاتة، تفسير القرآن الكريم: 13/2423.

(3) الألوسي، روح المعاني: 7/96.

(4) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 5/3.

(5) أظفيش، تيسير التفسير: 7/221.

يُغشي صاحبه، وتكون الاستعارة مكنيةً أصليةً في لفظ الليل، وبلاغةً الاستعارة تكمن في تصوير حركة الليل والنهار بما يُقرَّب الصورة للمخاطب، تجسيداً للمحسوسات الكليّة البعيدة بالمحسوسات الجزئية القريبة.

بلاغة الاكتفاء:

في قوله تعالى: ﴿يُغْشَى اللَّيْلُ النَّهَارَ﴾ اكتفاء؛ أي: يجعل الليل غاشياً، يُغشي النهار بظلمته، فيذهب بنور النهار، ويُغطيه بظلمته، ولم يذكر العكس بأن يقول: (يُغشي النهار الليل) اكتفاءً بأحد الضدين، لدلالة الكلام على أحدهما⁽¹⁾، وهذا لون من الإيجاز، وإثارة الليل باعتبار أن السّتر أوضَح فيه، كحال اللباس الذي يستر صاحبه. وقد يكون لفظ النهار معطوفاً على الليل، وحرف العطف محذوف، وحسن حذف حرف العطف؛ لأنَّ النهار والليل لا يجتمعان، فكأنَّه قال: (يُغشي الليل ويغشي النهار)، قياساً على ما ذكره ابن هشام في (مغني اللبيب) حكايةً عن أبي زيد: (أكلتُ خُبْزاً لَحْماً تَمَرّاً)، قال: "قَدْ حُرِّجَ على ذلك آيات إحداها ﴿وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاعِمَةٌ﴾ [الغاشية: 8]؛ أي: (ووجوه) عطف على ﴿وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَلِشَةٌ﴾ [الغاشية: 2]⁽²⁾، وتقدير حرف عطف محذوف لا يليق بهذا المقام قياساً على ما ذكر، فالنظم على ظاهره.

دقة التعبير بصيغة المضارع:

جاء في قوله تعالى: ﴿يُغْشَى اللَّيْلُ النَّهَارَ﴾ بصيغة المضارع لما يدلُّ عليه من التجدد؛ لأنَّ جعل الأشياء المتقدِّم ذكرها جعل ثابت مستمر، وأمّا إغشاء الليل والنهار؛ فهو أمر متجدد كلَّ يوم وليلة، وهذا استدلال بأعراض أحوال الأرض، وذكره مع آيات العالم

السّتر في الليل
أوضح منه في
النهار

إفادة التجدد
والاستمرار
وتعلُّقهما بحياة
الإنسان طلباً
لمعاشه وسكونه

(1) السيّاسي، عيون التفاسير: 2/256.

(2) ابن هشام، مغني اللبيب، ص: 831.

السُّفْلِيَّ فِي غَايَةِ الدَّقَّةِ الْعِلْمِيَّةِ؛ لِأَنَّ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ مِنْ أَعْرَاضِ الْكُرَّةِ الْأَرْضِيَّةِ بِحَسَبِ اتِّجَاهِهَا إِلَى الشَّمْسِ، وَلَيْسَا مِنْ أَحْوَالِ السَّمَاوَاتِ؛ إِذِ الشَّمْسُ وَالْكَوَاكِبُ لَا يَتَغَيَّرُ حَالُهَا بِضِيَاءٍ وَظُلْمَةٍ⁽¹⁾.

وَمَدُّ الْأَرْضِ، وَبَسْطُهَا وَتَشْبِيْثُهَا بِالْجِبَالِ الرَّاسِيَةِ، وَبَثُّ الثَّمَرَاتِ فِي جَنْبَاتِهَا مِنَ الدَّلَائِلِ عَلَى عَظَمَةِ الْخَالِقِ وَقُدْرَتِهِ، وَلَكِنَّ فَرْطَ أَلْفَةِ النَّاسِ لِهَذِهِ الْمَخْلُوقَاتِ، مَعَ بَقَائِهَا صَامِتَةً جَامِدَةً قَدْ يَهْوُنُ أَمْرُهَا عِنْدَهُمْ، دُونَ تَدَبُّرٍ وَاعْتِبَارٍ طَوِيلَيْنِ، بِاعْتِبَارِ أَنَّ الْأَلْفَةَ مُذْهِبَةٌ لَاسْتِشْعَارِ النِّعْمَةِ، أَمَّا آيَةُ اللَّيْلِ، وَآيَةُ النَّهَارِ؛ فَهُمَا آيَتَانِ كَبِيرَتَانِ، فِي إِحْدَاهُمَا طَلَبُ الْمَعَاشِ، وَفِي الْأُخْرَى طَلَبُ السُّكُونِ، فَالْكِيفِيَّةُ الْبَشَرِيَّةُ فِيهِمَا مُتَجَدِّدَةٌ نَشِيطَةٌ مُسْتَمِرَّةٌ، وَلِذَا جَاءَ التَّعْبِيرُ بِالْمُضَارِعِ الدَّالِّ عَلَى التَّجَدُّدِ وَالْحَدُوثِ⁽²⁾.

توجيه القراءات القرآنية في ﴿يُعْشَى﴾:

قراءة التشديد
معنى التكرير
والتكثير
والتخفيف
معنى الاقتدار

قَرَأَ الْجُمْهُورُ قَوْلَهُ تَعَالَى: ﴿يُعْشَى﴾ بِسُكُونِ الْغَيْنِ وَتَخْفِيفِ الشَّيْنِ، وَهُوَ مُضَارِعٌ (أَغْشَى)، وَقَرَأَ حَمْزَةً وَالْكَسَائِيَّ، وَشُعْبَةَ عَنْ عَاصِمٍ، وَيَعْقُوبَ، وَخَلْفَ بِتَشْدِيدِ الشَّيْنِ⁽³⁾ ﴿يُعْشَى﴾ مِنْ (غَشَى)؛ أَيْ: يُعْشَى اللَّهُ اللَّيْلَ النَّهَارَ، وَحُجَّةٌ مَنْ قَرَأَ بِالتَّشْدِيدِ أَنَّ هَذَا فِعْلٌ يَتَرَدَّدُ وَيَتَكَرَّرُ، وَذَلِكَ أَنَّ كُلَّ يَوْمٍ وَكُلَّ لَيْلَةٍ غَيْرِ الْيَوْمِ الْآخِرِ وَغَيْرِ اللَّيْلَةِ الْآخِرَى، فَالتَّغَشْيَةُ مَكْرُورَةٌ مَرْدُودَةٌ لِمَجِيئِهَا يَوْمًا بَعْدَ يَوْمٍ، وَلَيْلَةً بَعْدَ لَيْلَةٍ، وَفِي التَّنْزِيلِ ﴿فَعَسَلَهَا مَا غَشَى﴾⁽⁴⁾ [النَّجْم: 54]، فَالْقَرَاءَتَانِ مُتَسَاوِيَتَانِ، وَفِي التَّشْدِيدِ مَعْنَى التَّكْرِيرِ وَالتَّكْثِيرِ وَالْمَدَاوِمَةِ⁽⁵⁾، وَهِيَ مُنَاسِبَةٌ لِلسِّيَاقِ، كَمَا أَنَّ قِرَاءَةَ التَّخْفِيفِ مُنَاسِبَةٌ لِعَظِيمِ اقْتِدَارِهِ سُبْحَانَهُ.

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 13/84.

(2) الدَّبَل، التَّنْظُمُ الْقُرْآنِيُّ فِي سُورَةِ الزَّعْدِ، ص: 56.

(3) ابن الجزري، البُشْرَى: 2/269.

(4) ابن زنجلة، حُجَّةُ الْقَرَاءَاتِ، ص: 284.

(5) مَكِّي بْنُ أَبِي طَالِبٍ، الْكُشْفُ عَنْ وَجْهِ الْقَرَاءَاتِ: 1/465.

دلالة البدء بذكر الليل:

قوله تعالى: ﴿يُغْشَى اللَّيْلُ النَّهَارُ﴾ وإن احتمل العكس أيضاً بالحمل على تقديم المفعول الثاني على الأول، فإن ضوء النهار أيضاً سائر لظلمة الليل إلا أن الأنسب بالليل أن يكون هو الغاشي⁽¹⁾، فإن الليل هو الأصل؛ لأنّ الفضاء مظلم، والظلمة هي الأصل، ويأتي الضوء ليُمزق هذه الظلمة ويسري فيها، ويُبدها، فالضوء يأتي بعد الظلمة، كما أن الليل محلّ السكون السابق للحركة فبه تظلم الآفاق، ويسكن كل حيوان إلى مأواه، ثم إذا قضا مأربهم من النوم، غشي النهار الليل، فإذا هم مُصبحون ينتشرون في مصالحهم وأعمالهم في النهار⁽²⁾.

الظلمة هي
الأصل في
الفضاء، ومعنى
السّتر في الليل
أوضح

علة فصل الجملة عن السابق:

بعد أن ذكر النظم الكريم الأدلة التي تُشاهد رأي العين في كل صباح ومساء، وفي كل حين ووقت، ذكر أن هذه الأدلة لا يلتفت إليها، ولا يعتبر بها إلا من له فكر يتدبر به، وعقل يهتدي به إلى وجه الصواب، وينتقل من النظر في الأسباب إلى مسبباتها، فقال: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾، فيستدلون بالصنعة على الصانع، وبالسبب على المسبب؛ أي: إن فيما ذكر من عجائب خلق الله وعظيم قدرته التي خلق بها هذه الأشياء العظيمة؛ لدلائل وحججاً لمن يتفكر فيها، ويعتبر، فيعلم أن الخالق لذلك هو القاهر فوق العباد⁽³⁾، فقوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ تعليل لما سبق؛ أي: إنما ذكر ما ذكر؛ لأنّ فيه آيات للمفكرين، لعلهم يؤمنون، ثم يوقنون بآيات الله تعالى القرآنية المؤيدة بالآيات الكونية.

تقرير ما سبق
استدلالاً
بالصنعة
على الصانع،
وبالسبب على
المسبب

(1) القوّجّي، فتح البيان: 3/478.

(2) السّعدّي، تيسير الكريم الزّحمن، ص: 475.

(3) الخازن تفسير الخازن: 3/4، والراغبي، تفسير الراغبي: 13/65.

نُكْتة الإشارة بالبعيد:

استعمال اسم الإشارة للبعيد في قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ﴾؛ أي: فيما ذُكِرَ من مَدِّ الأرض وجَعَلِ الرَّوَاسِي عليها، وإجراء الأنهار فيها، وخلقِ الثَّمَرَات وإغشاء الليل النَّهَار، وفي هذه الإشارة تنبيهٌ على عِظَمِ المُشَار إليه في بابه⁽¹⁾، فهو بعيدٌ يحتاج إلى مزيد تأمُّلٍ، وغور فكرٍ، وكبير تدبُّرٍ، للوصول إلى حقيقة تلك الآيات، وأنها آياتٌ عظيمةٌ في بابها.

سِرُّ جعل الأشياء المذكورة ظروفاً للآيات:

جعل الأشياء المذكورة ظروفاً للآيات؛ لأنَّ كُلَّ واحدة من الأمور المذكورة تتضمن آيات عظيمة يجلوها النظر الصحيح، والتفكير المجرّد عن الأوهام⁽²⁾.

غرض التوكيد:

جاء التوكيد في قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ لغرض بلاغيٍّ، فإنَّ الذي فعله الله تعالى من بَسَطِ الأرض طَوَلاً وعَرْضاً، ومن تثبيتها بالرَّوَاسِي، ومن شَقَّها بالأنهار لآيات باهرة، ودلائل ظاهرة على قدرة الله تعالى ورحمته بعباده⁽³⁾، فأكد هذا الخبر بأداة (إِنَّ) واسميّة الجملة واللام المرحّلة من (آيات)؛ تقويةً لحُكْمِهِ وتنبيهاً على فضيلة التَّفَكُّر وأثر نفعه على العبد.

دلالة تنكير (آيات):

قوله تعالى: ﴿لَآيَاتٍ﴾ اسمٌ إنَّ دخلته اللام لتأخُّره عن خبرها، والتَّنْكِيرُ للتَّفْخِيمِ كمَّا وكيفًا؛ أي: ﴿لَآيَاتٍ﴾ عظيمةٌ كثيرةٌ دالّةٌ على القُدرة والحكمة الباهرة، والرَّحمة الواسعة المُقتضية لاختصاص الألوهيّة به سبحانه.

التَّنبِيه على
عِظَمِ المُشَار
إليه وأَنَّهُ بمنزلةٍ
رفيعةٍ

تقوية الحُكْمِ
والتَّنبِيه على
فضيلة التَّفَكُّر
وأثر نفعه على
العبد

الدَّلالة على
التَّفْخِيمِ
والتَّعْظِيمِ كمَّا
وكيفًا

(1) الألويسي، روح المعاني: 7/97.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 13/85.

(3) الطنطاوي، التفسير الوسيط: 7/440.

سرّ ذكر لفظ (قوم):

نبّه النّظم الكريم على أنّ المقام يحتاج إلى تعبٍ بتجريد النّفس من الهوى وتحكيم العقل صرفاً بقوله: ﴿لَقَوْمٍ﴾؛ أيّ ذوي قوّة زائدة على القيام فيما يحاولونه⁽¹⁾، فلم يقلّ: (آياتٍ للمُتفكّرين) بحذف لفظ (قوم)، فأجرى صفة التّفكّر على لفظ (قوم) إشارة إلى أنّ التّفكّر المتكرّر المتجدّد هو صفة راسخة فيهم، بحيث جعلت من مقوّمات قوميتهم؛ أيّ: جبلّتهم⁽²⁾.

نكتة التعبير بصيغة المضارع دون الاسم:

جاء في التّفكير بالصّيغة الدّالة على التّكلف في قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾، وبصيغة المضارع للإشارة إلى تفكير شديد ومكرّر مُتجدّد⁽³⁾، ولم يقلّ: (لقوم متفكّرين)، وذلك لدعوة النّاس لديمومة التّفكّر في خلق الله تعالى، لبقاء الإيمان حاضراً في النّفوس، باقياً في القلوب، فإذا زال التّفكّر؛ ضعف الإيمان وزال.

نكتة ذكر التّفكير دون التّدبر أو التّعقّل:

جاء التعبير في قوله تعالى: ﴿يَتَفَكَّرُونَ﴾ دون (يعقلون) ونحوه؛ لأنّ في هذه المخلوقات، وبديع صنّعها، وتسخيرها ما يستوجب التّفكّر، والتّأمّل في ملكوت الكون⁽⁴⁾، فلمّا ساق سبحانه هذه الآيات مُفصّلة إلى أربع، وكان فيها دقّة، جمّعها وناطها بالفكر⁽⁵⁾؛ لأنّ الفكر هو تصوّف القلب في طلب الأشياء⁽⁶⁾.

❁ الفروق العجّمية:

يتفكرون ويتذكرون:

التّفكّر تصوّف القلب بالنّظر في الدّلائل ومعاني الأشياء ليدرك

صفة التّفكّر سرّ
من أسرار قيام
البشر على الحقّ

بقاء التّفكّر بقاء
الإيمان وبزواله
زواله

تعليق المذكرات
بالفكر لما فيها
من الدقّة
وتطلّب البحث

التّدكّر مقصود
التّفكّر وثمرته
فإذا فكر القلب؛
تبصّر، وإذا
تبصّر؛ تذكّر

(1) البقاعي، نظم الدرر: 10/277.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/85.

(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/85.

(4) الدّبل، النّظم القرآني في سورة الزّعد، ص: 56.

(5) البقاعي، نظم الدرر: 10/277.

(6) الخازن، لباب التّأويل: 3/4.

المطلوب⁽¹⁾، وهو سراج القلب يرى به خيره وشره، ومنافعه ومضاره، وكلُّ قلب لا تفكر فيه؛ فهو في ظلماتٍ يتخبّط⁽²⁾.

وفي القرآن الكريم يأتي طلبُ التفكرِ إمّا بضربٍ مثليٍّ حتّى يتأمّل الإنسان هذا المثل، وإمّا يكون جواباً عن سؤالٍ حتّى يتفكر في الإجابة عنه، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أُنْزِلَتْهُ مِنَ السَّمَاءِ فَأَخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالْأَنْعَامُ حَتَّى إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَدِرُونَ عَلَيْهَا أَتْلَهَا أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِالْأَمْسِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾﴾ [يونس: 24] وقال: ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَّرَأَيْنَاهُ خَشِيعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَتِلْكَ الْأَمْثَلُ نُضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾﴾ [الحشر: 21].

أمّا التذكُّر؛ فهو محاولة النفس استرجاع ما زال من المعلومات⁽³⁾، ويكون التذكُّر للاتِّعاظ وأخذ العبرة قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ الْقَوْلَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٥١﴾﴾ [القصص: 51]، وقال: ﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٥٨﴾﴾ [الدخان: 58].

والتفكر والتذكُّر أصل الهدى والفلاح، وهما قطبا السعادة، إذ التفكر: طلب القلب ما ليس حاصلًا من العلم، والتذكُّر: استرجاع ما زال عن القلب، والمتفكر ينتقل من المقدمات والمبادئ التي عنده إلى المطلوب الذي يريده، فإذا ظفر به؛ تحصّل له تذكُّر به، وأبصر مواقع الفعل والترك، وما ينبغي اجتنابه، فحينها يكون التذكُّر؛ فالتذكُّر هو مقصود التفكر وثمرته، فإذا فكر القلب؛ تبصّر، وإذا تبصّر؛ تذكّر⁽⁴⁾.

(1) الجُرْجانيّ، التّعريفات، ص: 63، والعسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 121.

(2) الجُرْجانيّ، التّعريفات، ص: 63.

(3) الكفويّ، الكلّيات، ص: 67.

(4) ابن القيم، مفتاح دار السعادة: 1/214.

عنوان الكتاب:

موسوعة التفسير البلاغي، المجلد الثالث والعشرون، سورة يوسف من الآية 56 إلى سورة الرعد الآية 15
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة

*

التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة

سنة الطبع: 1445هـ - 2024م

© حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي

الطبعة الأولى: 2024م

*

الفهرسة الوصفية أثناء النشر:

مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366

م. ق. ت

التفسير البلاغي للقرآن: المجلد الثالث والعشرون، سورة يوسف من الآية 56 إلى سورة الرعد الآية 15
[إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة: منشورات القاسمي، 2024.

مج. 23، 800 صفحة؛ 24x17 سم.

ردمك : 978-9948-768-20-3

يشتمل على ارجاعات بليوجرافية.

مج. 23 : المجلد الثالث والعشرون، سورة يوسف من الآية 56 إلى سورة الرعد الآية 15.

1-القرآن - تفاسير نحوية 2-القرآن، بديع 3-القرآن، بلاغة 4-القرآن - سور وآيات 5-القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-768-20-3

*

إذن طباعة رقم: MC-03-01-8086351 بتاريخ 2024/02/16م،

مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة

*

الفئة العمرية : E

«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»

*

الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE

الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»